النفس وخلودها عند ابن سينا

للدكتور ابراهيم بيومى مدكور
مدرس الفلسفة بكلية الآداب

— ٢ —

يدرس ابن سينا النفس من نواح كثيرة، فيحاول أولا أن يثبت وجودها ومغايرتها للبدن، ثم ينتقل بعد هذا إلى حقيقتها فيعرض لجوهريتها وروحيتها ويبرهن على خلودها ببراهين شتى ووسائل متعددة. ولن تفهم حقيقة النفس فهما كاملا إلا إذا حددت وظائفها وبين فى دقة عملها. وابن سينا يتحدث طويلا عن أنواعها المختلفة من نباتية وحيوانية وإنسانية، ويسهب بوجه خاص فى حديثه عن قوى النفس الانسانية الظاهرة والباطنة. وهذا الجزء يلخص تقريباً علم النفس عنده. وواضح أن مشكلة العقل التى تعد أحد الأحجار الأساسية فى بناء الفلسفة الاسلامية والتى شغلت فلاسفة القرون الوسطى على العموم، تتصل اتصالا وثيقاً بقوى النفس الباطنة، وسنتتبع هنا الخطوات السابقة لندلى بفكرة كاملة عن أبحاث ابن سينا فى النفس، ولكننا سنجمل القول فى أقسامه وتفصيلاته الكثيرة المتصلة بأنواعها وقواها لأن هذا فى أغلبه أصبح من علم النفس البائد، وسنكتفى بأن نشير منه إلى مصادره اليونانية. وأما مشكلة العقل فهى من الأهمية بحيث لا تدرس عرضاً وفى ثنايا بحث كهذا، ولا بد لها من دراسة مستقلة سبق لنا أن حاولناها فى كتابنا عن الفارابى (١)

لم يعن مفكرو اليونان كثيراً بالبرهنة على وجود النفس، وكأنهم كانوا يعدون وجودها واضحا بحيث لا يتطلب الأثبات، ومسلماً به إلى درجة لا تقبل الشك أو المناقشة. فالماديون منهم والروحيون متفقون على وجود النفس، وخلافهم فقط فى بيان ماهيتها وتحديد وظائفها. وأطباؤهم وفلاسفتهم مجمعون على أن للظواهر النفسية مصدراً وأصلا تعتمد عليه بجانب الجسم. وعلى هذا يمكننا أن نقول إن المادية المتطرفة التى ظهرت فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر والتى تنكر وجود النفس بتاتاً غير معروفة لديهم. ذلك لأن هذه المادية أثر من آثار الطب وعلم وظائف الأعضاء الحديثين، وكل همها أن تفسر الأحوال العقلية جميعها تفسيراً واقعياً تجريبياً، وفى اعتقاد أنصارها أن المخ والجهاز العصبى كفيلان بتوضيح كل أعمال الفكر السامية. لهذا نراهم يصرحون بأنه «لا تفكير بدون الفسفور»، وأن «المخ يهضم الاحساسات بشكل ما ويفرز عصارة التفكير افرازاً عضوياً» (١) وما كان الطب متقدما عند اليونان تقدمه فى التاريخ الحديث، ولا كانت وظائف الأعضاء واضحة وضوحها اليوم

ومن الغريب أن ابن سينا الذى تقبل كل مبادىء الطب وعلم وظائف الأعضاء اليونانيين قد عنى عناية خاصة بالبرهنة على وجود النفس وإثبات أنها تغاير البدن. ولعل ذلك راجع إلى أن بعض الماديين قد غالوا مغالاة الماديين المحدثين وتطرفوا تطرفهم، فوحدوا بين النفس والجسم أو أنكروا وجودها رأسا واعتبروا الجسم مبعث الظواهر العقلية على اختلافها. فلم ير بداً من أن يرد عليهم ويبين خطأهم، وقد أشار إليهم صراحة فى إحدى رسائله (٢). وفوق هذا فالمنهج القويم فى رأيه يقتضى أن يبدأ الباحث بأثبات وجود النفس ثم ينتقل بعد هذا إلى شرح وظائفها وأعمالها. يقول: «من رام وصف شىء من الأشياء قبل أن يتقدم فيثبت أولا أنيّته (يعنى وجوده) فهو معدود عند الحكماء من زاغ عن محجة الايضاح. فواجب علينا أن نتجرد أولا لأثبات وجود القوى النفسانية قبل الشروع فى تحديد كل واحدة منها وإيضاح القول فيها (٣)

وهو فى برهنته على هذا الوجود يسلك سبلا عدة ويستخدم وسائل متفرقة. فيلجأ تارة الى العرف العام والاستعمالات الدارجة مستمدا منها بعض الملاحظات الدالة على أننا نؤمن بوجود حقيقة فينا تخالف الجسم. ويركن تارة أخرى الى بعض القضايا الفلسفية

(١) Madkour, (La Place d'al Fârâbi), P. 122-180

(1) Cabanis, (Rapports du physique ert du moral), P. 138.

(٢) ابن سينا، (رسالة فى معرفة النفس الناطقة وأحوالها)، ص ٨.

(٣) ابن سينا، (رسالة فى القوى النفسانية)، ص ٢٠.

المسلمة من القدامى ليستعين بها على تحقيق هذه الغاية . ويبتكر أحيانا فروضا وتعليلات دقيقة تقربه من بعض الفلاسفة وعلماء النفس المحدثين . فيلاحظ أن الانسان اذا كان يتحدث عن شخصه أو يخاطب غيره فانما يعنى بذلك النفس لا الجسم . فحين تقول : أنا خرجت أو أنا نمت لايخطر ببالك حركة رجليك ولا اغماض عينيك ، بل ترمى الى حقيقتك وكل شخصيتك . وقد صاغ ابن سينا هذه الملاحظة على الصورة الآتية « ان الانسان اذا كان منهمكا فى أمر من الأمور فانه يستحضر ذاته حتى أنه يقول إنى فعلت كذا أو فعلت كذا ؛ وفى مثل هذه الحالة يكون غافلا عن جميع أجزاء بدنه . والمعلوم بالفعل غير ماهو مغفول عنه ، فذات الانسان مغايرة للبدن . »(١) . وإنا لنلمح فى ثنايا هذه الملاحظة فكرة الشخصية أو فكرة « أنا » (l'idée du moi) التى هى مثار بحث طويل بين علماء النفس المعاصرين . فالشخصية أو « الأنا » فى رأى ابن سينا لا يرجع الى الجسم وظواهره ، وانما يراد به النفس وقواها

ومن جهة أخرى تبدو علينا آثار لا يمكن تفسيرها إلا إن سلمنا بوجود النفس ، وأهم هذه الآثار الحركة والأدراك . فأما الحركة فضربان : قسرية ناتجة عن دفعة خارجية تصيب جسما ما فتحركه ، وغير قسرية وهى التى تتصل بنا هنا . وغير القسرية هذه منها ما يحدث على مقتضى الطبيعة كسقوط حجر من أعلى الى أسفل ، ومنها ما يحدث ضد مقتضى الطبيعة كالانسان الذى يمشى على وجه الأرض مع أن ثقل جسمه كان يدعوه الى السكون ، أو كالطائر الذى يحلق فى الجو بدل أن يسقط الى مقره فوق سطح الأرض . وهذه الحركة المضادة للطبيعة تستلزم محركا خاصا زائدا على عناصر الجسم المتحرك ، وهو النفس . وأما الأدراك فأمر امتازت به بعض الكائنات على بعض ، واذن لابد للكائنات المدركة من قوىً زائدة على غير المدركة (٢) . هذا هو البرهان الطبيعى السيكلوجى الذى يعتمد عليه ابن سينا فى اثبات وجود النفس . وهو كما لاحظ لانداور مستمد فى أغلب

(١) ابن سينا ، (رسالة فى معرفة النفس الناطقة) ، ص ٩ .
(٢) ابن سينا ، (رسالة فى القوى النفسانية) ، ص ٢٠ ــ ٢١ .

أجزائه من كتابى «النفس» و «الطبيعة» لأرسطو(١) . فى الكتاب الأول يصرح الفيلسوف اليونانى بأن الكائن الحى يتميز من غير الحى بميزتين رئيسيتين : هما الحركة والأحساس (٢) . وفى الثانى يقسم الحركة الى أقسام عدة لم يعمل ابن سينا شيئا سوى أن رَدَّدها وبنى عليها برهنته السابقة (٣) . بيد أن هذه البرهنة ، فوق أنها برهنة باللازم ، غير مقنعة وخاصة فى جزئها الطبيعى . فأنه لو كانت الأجسام كلها مكونة من عناصر متحدة لكان لهذه البرهنة قيمتها . فأما وهى مختلفة التكوين فلا مانع من أن الجسم الذى يضاد الطبيعة العامة بحركته متمش مع قوانين طبيعته الخاصة ومشتمل على عناصر تسمح له بالحركة . وكم من جهازات وآلات تتحرك حركات مضادة للطبيعة ولا يخطر ببال أحد الآن أنها تحتوى على نفس أو قوة خفية أخرى ، وقد انقضى الزمن الذى كانت تعتبر فيه النفس أصل الحياة والتفكير فى آن واحد ، أو مصدر الحركة والأدراك ان شئنا أن نستعمل لغة ابن سينا . وأصبح علماء الحياة يفسرون الظواهر الحيوية تفسيراً آلياً أو « ديناميكياً » ــ بمعزل عن القوى النفسية تاركين للنفسيين توضيح النفس وظواهرها ، وهؤلاء الأخيرون حتى المعنون فى الروحية منهم لايذهبون اليوم مطلقاً إلى أن للنفس عملا فوق الظواهر العقلية ويتقبلون التفسير الآلى للحياة والحركة . ويظهر أن ابن سينا قد تنبه إلى ضعف برهنته بدليل أنه لم يطنب فيها إلا مرة واحدة وفى مؤلف تقوم كل الدلائل على أنه كتبه فى صباه (٤) . أما فى «الشفاء» و «الأشارات» وغيرهما من مؤلفات الشيخوخة : فانه يمر بها مسرعا ويحاول أن يثبت وجود النفس معتمداً على آثارها العقلية ؛ وهذه هى البراهين التى تدل على العبقرية والابتكار .

فيلاحظ أولا أن فى الأحوال النفسية تناسقاً وانتظاماً يؤذن بقوة مهيمنة عليها ومشرفة على نظامها ، وهى برغم تنوعها

(1) Landauer, (Die Tsychologie des Ibn Sinâ), P. 376-77.
(2) Aristote, (De l'ame), I,2.403 b 125.
(3) Aristote, (Physique), V 177,4,431 a, 30.
(4) Landauer, (arr. cité), P. 336-338.
لندبك ، (رسالة فى القوى النفسانية لابن سينا) ، ص ٩ ــ ١٢ .

وتخالفها بل تنافرها أحياناً تدور حول مركز ثابت وتتصل بمبدأ لا يتغير ، وكأنها مرتبطة برباط وثيق يضم أطرافها المتباعدة ، فنسر ونحزن ، ونحب ونكره ، وتنفي وتثبت ، ونحلل ونركب ، ونحن فى كل هذا صادرون عن شخصية واحدة وقوة عظمى توفق بين المختلف وتوجد المؤتلف ؛ ولو لم تكن هذه القوة لتضاربت الأحوال النفسية واختل نظامها وطغى بعضها على بعض . وما النفس من آثارها إلا بمنزلة الحس المشترك من المحسوسات المختلفة ؛ كلاهما يلم الشعث ويبعث النظام والترتيب (١) .

وهنا يشير ابن سينا إلى ذلك البرهان المشهور الذى كثيراً ما رددده أنصار المذهب الروحى من علماء النفس المحدثين . ويتلخص فى أن وحدة الظواهر النفسية l'unité des faits psychiques تستلزم أصلا تصدر عنه وأساساً تعتمد عليه (٢) . وضعف هذه الوحدة أو انعدامها معناه ضعف الحياة العقلية أو القضاء عليها

يدنو ابن سينا من المحدثين ، بل ومن المعاصرين بشكل أوضح من هذا فى برهان آخر يصح أن نسميه برهان الاستمرار . وملخصه أن حاضرنا يحمل فى طياته ماضينا ويعد لمستقبلنا ، وحياتنا الروحية هذا الصباح ترتبط بحياتنا أمس دون أن يحدث النوم أى فراغ أو انقطاع فى سلسلتها ، بل وترتبط بحياتنا منذ أعوام مضت . ولئن كانت هذه الحياة متحركة ومتغيرة فانما تتحرك فى اتصال وتتغير فى ارتباط . وليس هذا التتابع والتسلسل إلا لأن أحوال النفس فيض معين واحد ودائرة حول نقطة جذب ثابتة . يقول ابن سينا : « تأمل أيها العاقل فى أنك اليوم فى نفسك هو الذى كان موجوداً فى جميع عمرك حتى أنك تتذكر كثيراً مما جرى من أحوالك . فأنت إذن ثابت مستمر لا شك فى ذلك . وبدنك وأجزاؤه ليس ثابتاً مستمراً بل هو أبدا فى التحلل والانتقاص . . . ولهذا لو حبس عن الانسان الغذاء مدة قليلة نزل وانتقص قريب من ربع بدنه . فتعلم نفسك أن فى مدة عشرين سنة لم يبق شىء من أجزاء بدنك ، وأنت تعلم بقاء ذاتك فى هذه المدة ، بل جميع عمرك . فذاتك مغايرة لهذا البدن وأجزائه الظاهرة والباطنة (١) » . وفكرة استمرار الحياة العقلية واتصالها من الأفكار التى أثبتها حديثاً وليم جيمس وبرجسون وعداها من أخص خصائص الظواهر النفسية ومن أكبر الدلائل على وجود « الأنا » أو الشخصية . وفى رأيهما أن تيار الفكر لا سكون فيه ولا انقسام ولا انفصام ، وهو فى حركة متصلة مطردة . وما أشبه الحياة العقلية بقطعة موسيقية مكونة من نغمات مختلفة ومتميزة قد امتزجت واختلط بعضها ببعض فأنتجت لحناً منسقاً (٢) يقول جيمس : « من الصعب جداً أن نجد فى شعور واقعى حالا نفسية مقصورة كل القصر على الحاضر بحيث لا نستكشف فيها أى شعاع من أشعة الماضى القريب » . (٣) فابن سينا ببرهانه المتقدم يسبق عصره بعدة أجيال ويدلى بآراء يعتد بها علم النفس الحديث كل الاعتداد

(يتبع)

ابراهيم مدكور

(١) ابن سينا ، (رسالة فى معرفة النفس الناطقة) ، ص ٩ .

(2) Bergson' (Evolution créatrice), P. 3.

(3) James, (Principles of Psychology, I, P. 206.

(١) ابن سينا ، (رسالة فى معرفة النفس الناطقة) ، ص ٩ ــ ١٠ و (الشفاء) ، جـ ١ ، ص ٣٦٢ = (النجاة) ، ص ٢١٠ ــ ٢١٢ والاشارات ، ص ١٢١ .

(2) Ribot, âme dans (La Grande Encyc).